العالم الشعري عند الأميري من خلال

" ألوان طيف "

(5)

عمر بهاء الأميري

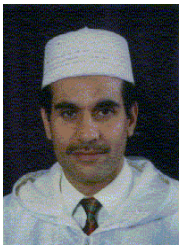

سعيد الكرواني

الأميري الأب والابن والفنان

لقد ضمن الأميري رحمه الله ديوانه وشوشات مشاعره الأبوية، فأسمعنا ألحان قلبه المفعم بحب أولاده، وآهات روحه المتعبة من همهم وانشغال الفكر عليهم، فعبر بذلك عن مشاعر كل أب نحو أكباده ومزع قلبه، ولا جدال في أن مشاعر الأبوة من أنبل المشاعر الإنسانية وأنبلها...(1) ولقد كانت الترنيمة العذبة (بابا) تصدع قلب الشاعر الأب، وتلاحقه بالهم والتسهيد، كلما رمت به الأيام بعيداً عن حبات قلبه، فإذا هو يعيش معهم بخياله، كأنه يراهم، ويسمع أصواتهم، لا يشغله عن التفكير فيهم ما يحيط به من طبيعة خلابة، وجمال آسر فتان، فقد زار مرة الجزيرة (الإسبانية) السليبة (سبتة) ، وهي تحتفل بعيدها، وتتألق بزينتها القشيبة الساحرة، فجلس واجماً ساهماً مهموماً، فقال له صاحبه وهو يحاوره:

مالي أراك ساكتاً حزيناً؟ وهذه (سبتة) تضحك لك مياهها، وتستقبلك، وتقبل عليك بعيدها وغيدها؟!

وكان شعره أبياتاً من الشعر الوجداني الحي الذي تبلورت فيه التجربة الحية في أصفى حالاتها وأصدق صورها:

يا غيد (سبتة)، ماذا العيد والغيد — والتسع من حب قلبي دونهم بيد؟!

تجري على شبك العينين سيرتهم — تــترى (كفيلم), له رجع وترديد

ولــلــخــيال حياة بينهم وهوى — ولــلــحــنين مع الأنفاس تنهيد

ولئن كان عمر الأميري نظر من هذه الزاوية، فعمر أبو ريشة رحمة الله عليهما رأى من زاوية أخرى أشسع:

يا عيد

يا عيد، ما افتر ثغر المجد، يا عيد — فــكيف تلقاك بالبشرى الزغاريد؟!

وكــيــف ينشق عن أطياف عزتنا — حــلم وراء جفون الحق موؤود؟!

طــالــعــتنا وجراح البغي راعفة — ومــا لــهــا من أساة الحي تضميد

فــتــلــك رايــتــنا خجلى منكسة — فــأيــن من دونها تلك الصناديد؟!

مــا بــالــها وثبت للثأر وانكفأت — وســيــفها في قراب الذل مغمود؟!

يا عيد كم في روابي القدس من كبد — لــهــا على الرفرف العلوي تعبيد!

هيهات لن يشتكي ما طل من دمها — فــالــحقد مضطرم والعزم مشدود

سـيـنجلي ليلنا عن فجر معترك ونحن في فمه المشبوب تغريد(2)

وترن في أذني الأميري " بابا " فيرجع صداها من أعماق القلب لحناً حزيناً، شجي الإيقاع، هادىء الرنين، وئيد النغمات:

مـا أبعد الأمس عن يومي وأقربه لـحـن شجي له في النفس تغريد
تـرن في أذني وجدي ومرحمتي بـذكـريـاتي من " بابا " أناشيد
يا ويح " بابا "، نأى " بابا " ولازمه مـن هم تسعته الأحباب تسهيد(3)
* * * * *
أيـن الـضـجيج العذب والشغب أيـن الـتـدارس شـابـه اللعب
أيـن الـطـفـولـة فـي توقدها أيـن الـدمى في الأرض والكتب
أيـن الـتـشـاكس دونما غرض أيـن الـتشاكي ماله سبب؟!.(أب)

وما أجمل تصويره الوحشة التي أناخت بكلكلها على صدره بعد رحيلهم، فإذا به يصعد زفرة القلب المعنى بفراقهم، ولا يملك إلا أن يردد كلمة " ذهبوا " بكل ما تحمل من إيقاع عاطفي مؤثر حزين:

بـالأمـس كـانـوا مـلء منزلنا والـيـوم ويـح الـيوم، قد ذهبوا
وكـأنـمـا الصمت الذي هبطت أثـقـالـه فـي الـدار إذ غربوا
إغـفـاءة الـمـحـمـوم، هدأتها فـيـه يـشـيـع الـهم والتعب
ذهـبـوا، أجـل ذهبوا ومسكنهم في القلب، ما شطوا وما قربوا(أب)

وننصت في ختام هذه القصيدة الرائعة إلى بوح الأبوة الحانية العطوف على فراخها الزغب، وقد ركبوا للرحيل، فإذا نحن أمام أب يذوب حباً وحناناً ورقة، إلاّ أنه يتظاهر بالجلد والتماسك، فيكتم دمعه، ويداري أساه، حتى إذا ما غابوا عن عينه، أحس أنهم قد نزعوا قلبه من نياطه، وأسالوا دمعه من مآقيه، وإذا هو بعد رحيلهم بين قلب ملذع لا يهدأ له وجيب، وعين مقرحة تسكب الدمع الهتون:

دمـعـي الذي كتمته جلدا لـما تباكوا عندما ركبوا
حتى إذا ساروا وقد نزعوا من أضلعي قلباً بهم يجب
ألـفـيتني كالطفل عاطفة فـإذا به كالغيث ينسكب

إنه المشهد الإنساني الخالد، مشهد الأبوة في ساعة الوداع، فلا تثريب على الأب الرجل الجلد إن سالت من عينيه الدموع، وهو يودع فلذ أكباده، بل العجب كل العجب من أن يقف هذا الموقف المؤثر، ولا تنهمر من عينيه الدموع.(4)

ولنذكر قصة الأعرابي الذي نزعت من قلبه الرحمة حين تعجب من عطف عمر بن الخطاب رضي الله عنه وحدبه على أولاده، عكسه إذ يجلس الواقف عند دخوله، ويقف الجالس ويصمت المتكلم ويتكلم الصامت وهكذا...

قد يعجب العذال من رجل يبكي ولو لم أبك فالعجب
هيهات، ما كل البكا خور إني، وبي عزم الرجال أبُ(أب)

وما أجمل قوله: " إني أب " في هذا السياق، إذ صور في هاتين الكلمتين عالم الأبوة الغني الحافل بضروب المشاعر وألوان الأحاسيس التي تموج بها نفوس الآباء في صحبة الأبناء.

لقد كان قلب الشاعر في هذه القصيدة هو الذي يتكلم، فلا عجب أن تكون في مجموعها دفقة عاطفة، وخفقة قلب، ورعشة

وجدان، وهزة نفس، ورفة روح، وسبحة خيال.(5)

وليس أدل على التعبير العفوي الرشيق من قوله في قصيدة (أب):

فنشيدهم " بابا " إذا فرحوا ووعيدهم " بابا " إذا غضبوا

وهتافهم " بابا " إذا ابتعدوا ونجيهم " بابا " إذا اقتربوا

وقوله في قصيدة: (ريحانة الله).

في الكرم من آثارهم كرم لم يقصدوه، ولا به حفلوا

للنمل شطر من شطائرهم منها يسيل الزبد والعسل

ونلحظ في هاتين القصيدتين التوافق والانسجام في الشكل والمضمون فالرشاقة والعفوية والمرح في التعبير والإيقاع، تقابل رشاقة الأولاد وخفتهم، وهم في عرام لعبهم لاهون مرحون.

على حين تجد الإيقاع في قصيدة (على شبك العينين) يتسرب من قلب الشاعر شجياً، هادىء الرنين، حزين النغمة، وئيد الخطوة، يحكي ما تزخر به نفسه من مشاعر الألم والشوق والحنين:

ما أبعد الأمس عن يومي وأقربه لحن شجي له في النفس تغريد

ترن في أذني وجدي ومرحمتي بذكرياتي من " بابا" أناشيد

وهكذا حقق الشاعر الأميري بأصالته الفنية وصدق تجربته الشعورية، الانسجام بين البناء الفني للقصيدة، والحالة الشعورية التي عاشها حين فاضت نفسه بالشعر. فأنشأ في وصف أولاده، وهم يلعبون ويمرحون، لوحات فنية شاخصة، ترى فيها الطفولة اللاهية العابثة المرحة، في اندفاعها واسترسالها وعفويتها وبراءتها، خطت خطوطها ريشة الشاعر الفنان الوصاف، فلم تغادر شيئاً في ساحة الطفولة وعرامها إلا رسمته ببراعة فائقة وفن أصيل.

فأنت تجد أطفال الشاعر في قصيدة (أب) يضجون حولك ويتحركون، وتحس شغبهم وهدوءهم، وترى دُماهم ملقاة على الأرض، وتسمع تشاكسهم وتشاكيهم، وتباكيهم وتضاحكهم، وتشعر بحزنهم وطربهم، وتشهد مجاورتهم لأبيهم، وتزاحمهم على مجالسته، وتنصت إلى ترددهم كلمة " بابا " فرحين ومغضبين، مقتربين ومبتعدين، وتلحظ سكونهم ووثوبهم، وتلمح بريق أعينهم وتألق دموعهم، وتعاين تحطيمهم الزجاج، وثقبهم الجدار وكتابتهم عليه، وكسرهم المزالج، وتبصر علبة الحلوى التي نهبوا، وشطر التفاحة التي قضموا... وغير ذلك مما خلفوا من آثار، مما لم يغب عن عين الشاعر الفنان.

وينقلك الشاعر بعد اطلاعك على هذه اللوحة الرائعة البهيجة المرأى بالحياة والحركة إلى الهدوء الصامت المميت، الذي ساد البيت بعد رحيلهم، فيشبهه بإغفاءة المحموم، تغشاه الحمى ويشيع في أعطافه الألم والهم والوصب:

كأنما الصمت الذي هبطت أثــقاله في الدار إذ غربوا

إغــفاءة المحموم، هدأتها فــيــها يشيع الهم والتعب

وهكذا يضعك وجهاً لوجه، أمام المفارقة الهائلة، بين وجودهم ورحيلهم، وكل شيء في الدار يذكر الأب الشاعر بهم، فيفجر في قلبه ينابيع الحنان، وإذا شخوصهم الحبيبة، لا تغيب عن عينه ولا تريم:

إنــي أراهــم حيثما اتجهت عيني، كأسراب القطا سربوا

بالأمس في " قرنايل " نزلوا والــيوم قد ضمتهم " حلب "

لا جرم أن تكون هذه القصيدة من النوادر في الأدب العالمي، كما قال المرجوة له الرحمة الأستاذ عباس محمود العقاد في تقريظها، ذلك أنها تضمنت مشهداً شاخصاً متحركاً من الحياة الواقعية، يضج بالحيوية والانطلاق، بأسلوب رشيق عذب الإيقاع، متألق بالعاطفة الصادقة الريانة، المنسربة من أعماق القلب، وأي قلب؟!

قلب الأب الشاعر المرهف الحنون.(6)

ومما عرضت له لوحة الطفولة الشاخصة، مشاجراتهم في غيبة أبيهم، حتى إذا ما رأوه انقلبوا ملائكة هادئين:

في غيبتي يتشاكسون وقد يتشاجرون ، وربما اقتتلوا
فإذا ظهرت أمام أعينهم عادوا ملائكة وما مهلوا
وعلى ثيابهم دلائل ما فتكوا، وما هتكوا، وما فعلوا

(ص:37)

أما في البنوة البارة وهذا جانب آخر من الأهمية بمكان فترى الأميري يخاطب أمه رحمة الله عليهما معترفاً بأفضالها:

أنـــت التي غذيتني وحضنتني لولاك ما أبصرت ضوء نهاري
أنـــت التي داريتني فنموت في أحـــضان عطفك خالي الأكدار
أنـــت التي أنشدتني لحن الوفا وسهرت من أجلي إلى الأسحار
أنـــت التي قبلتني وبسمت لي وضممتني وأنا الصغير العاري
أنـــت الـــتي لقنتني آي الهدى والحب والإحسان واسم الباري
أرشـــدتني ونصحتني ومنعتني وعدلت بي عن منهج الأشرار
لـــمـــا نشأت دفعتني بشجاعة لأنـــال مـــا يسمو من الأوطار

(ص:49)

وقد استعرض الشاعر صنيع أمه بلهجة المحب البر الوفي، المعترف بالفضل السابغ العميم، الذي طوقت أمه به جيده، وذلك بتكراره هذه العبارات: أنت التي قبلتني... وإنه لتكرار يشي بما يعتلج في النفس من مشاعر الحب والوفاء والبر والعرفان، وإنها لأسمى المشاعر وأكرمها(7) ، ضداً على ملوثي الفِطَر لا يردون فضلاً لفاضل ولو كانت المسألة متعلقة بالأم المصنوعة من الحب والعطف والحنان، ولو كان الابن العاق هو صاحب الجريرة، فشتان بين فطرة سوية وبين إغراء بئيس، وهذه إحدى القصائد الخالدات التي تعبر عن هذه المعاني في: (القلب الجريح) :

أغـــرى امـــرؤ يـــوماً غلاماً جاهلاً بـــنـــقـــوده كـــيـــما ينال به الوطر
قـــالـــ: أئـــتـــني بفؤاد أمك يا فتى ولـــك الـــدراهـــم والجواهر والدرر
فـــمضى وأغرز خنجراً في صدرها والـــقـــلب أخرجه وعاد على الأثر
لـــكـــنـــه مـــن فـــرط سرعته هوى فـــتـــدحـــرج القلب المقطع إذ عثر
نـــاداه قـــلـــب الأم وهـــو مـــعـــفر ولدي الحبيب هل أصابك من ضرر؟

* * *

فـــكـــأن هـــذا الصوت رغم حنوه غضب السماء على الغلام قد انهمر
فـــارتـــد نـــحـــو القلب يغسله بما فـــاضـــت به عيناه من دمع العبر
حـــزنـــاً وأدرك ســـوء فعلته التي لـــم يـــأتـــها أحد سواه من البشر
واســـتـــل خـــنـــجره ليطعن نفسه طـــعـــنـــاً ليبقى عبرة لمن اعتبر
ويـــقـــولـــ: يا قلب انتقم مني ولا تـــغـــفـــر فـــإن جريمتي لا تغتفر
نـــاداه قـــلـــب الأم كـــفّ يداً ولا تـــذبـــح فؤادي مرتين على الأثر!

الله أكبر، إنها عاطفة برع الشاعر في تصويرها، وقد سقتها لك أخي القارىء لتجد في نفسك صراعاً حاداً بين عاطفتين

واحدة في أقصى اليمين والثانية على النقيض تماماً.

إن فساد إنسانية الإنسان أصبحت عنواناً لهذا الزمان: كأهله بطبيعة الحال، فهل إلى مرد من سبيل؟!

وإذا كانت بضدها تتميز وتعرف الأشياء ها هي أم الأميري كما تصورها دانية باكية متلهفة على فراقه، تمسك دموعها فلا تستطيع، فتنفلت دمعة يراها على البعد بعين خياله كأنها ومضة الحباحب(*) جزاءً وفاقاً للعَبْرة التي كتم عند سفر أولاده، فلما غابوا تدفقت، لقد أدين كما يدين!

أبـــي بـــاسم، والصبر بعض وقاره وأمـــي تـــرنـــو فـــي تلهف لاغب
وتـــدنـــو وتحنو، وهي تمسك دمعة يراها خيالي مثل ومض الحباحب(*)
أحـــن إلـــى أمـــي حـــنـــيـــن متيم مشوق جزوع مدنف كلف صب(**)

ولا يخفى ما اشتمل عليه هذا البيت من تكثيف دقيق للمشاعر المزدحمة في نفس الشاعر، وكلها تزيد من أوار حنينه وشوقه وظمئه لمعرفة أخبار الوالدة الحبيبة المريضة البعيدة...(8)

وانظر إلى الأدب الجم في خطابه لأمه حين عرضت عليه أمراً تأباه نفسه(9):

يـــا أمـــتـــا إنـــي مـــن ال رحـــمن في حصن حصين
عـــلـــمـــتني حفظ الكرامة ســـوف أحـــفـــظـــها كدين
لـــن أبـــذل الـــنفس الأبية لـــلـــقـــريـــب ولـــلـــقرين
الله حـــســـبـــي مـــن معين إنـــه نـــعـــم الـــمعين(10)
أمـــي وكل الخير في طبعها والـــبـــر قـــد زان لها دينها
تـــحمل همي وهموم الورى والفكر لا يحصي أفانينها(*)
فـــكـــيف لا أحملها بالحشا لا خـــفف الله موازينها(*)

(ص: 63)

وكما سلفت الإشارة، فقد ضاق شعره على سعته وامتداده وشموله لكل نأمة من نأمات الحياة، وتطوافه في آفاق الإنسانية والوجود، واشتماله على حقائق الحياة، واتساعه لآلام المدنفين والمنكوبين، ضاق عن التعبير عما يعتلج في أعماق نفسه من شجون وآلام وكرب، وقصر عن تصوير الخطب الجلل الذي نزل بوفاة أمه:

كـــم ذا جـــنى حلو المنى لـــلـــمدنفين بعطف ندب
ولـــكـــم حـــنـــا، وكـــأنه قد صيغ من أنفاس صب
يـــســـع الورى وجراحهم فـــمـــداده من ذوب حبي
أمـــا أنـــا فـــيضيق عن بثي، وعن تصوير خطبي
وتـــحـــرقـــني وتمزقني ومدى أساي وعمق كربي

وما أجمل استجابة شعره لآلام المنكوبين واتساعه لتصويرها، وما أبلغ دلالة هذا التصوير على العاطفة الإنسانية الواسعة الشاملة وسموها!

وبعد هذه المقدمة التي أراد أن يبين فيها أن ما تزخر به نفسه من مشاعر وآلام أجل وأكبر من أن يتسع له نظم شعره، أو نثر من بيانه، شرع في رثاء والدته رثاءً يفيض بالرقة والحب والوفاء:

أمـــاه مـــن قـــلبي انتزعت وأنـــت أنـــت صـــميم قلبي

أبكيك؟ كيف وأنت عيني؟! يـــا لـــفـــقـــد فـــاق ندبي!
أرثيك؟ كيف وأنت روحي؟! والـــبـــلاغـــة لا تـــلـــبي!

إنه رثاء حار انبجس من أعماق القلب، ففي كل عبارة من عباراته شحنة من عاطفة، ونبض من بر، وسيل من حب، إنه التعبير عن حب عميق كبير أصيل، فالفقيدة في صميم قلبه بل هي صميم قلبه! ويتساءل الشاعر: أبكيك؟ وإنه لاستفهام أي استفهام!

إنها الأمومة الحانية الحكيمة أيضاً حيث يقول الأميري رحمه الله:

" لقد ربتنا وأبي رحمه الله ، فأحسنا تربيتنا، وكانت تشجعني في كل أعمالي العامة... وإن لها لموقفاً، يوم سافرت إلى القدس خلال حرب فلسطين، لا أنساه:

لقد سافرت من دمشق رأساً دون أن أمر بحلب لوداعها والأسرة... فلما بلغها الخبر كتبت إلي:

" إنني أقدر رقة العاطفة التي حملتك على السفر دون إعلامنا ووداعنا، ولكن ثق يا بني أنني أكثر بك فخراً، وأنت تؤدي واجبك في فلسطين مني وأنت بجواري، ترى شيخوختي، وإنني لأعلم أن الله القادر على حفظك في حلب ودمشق، هو الله القادر على حفظك في القدس وسواها... وكل ما أضرع إليه به، أن يكرمني بك، ويعيدك إلي سالماً غانماً" (11).

يا لها من وقفة رائعة لأمة مجاهدة، تذكرنا بمواقف كريمة: ففي حوار مع زوج الشيخ عبد الله عزام رحمه الله ، المؤمنة الصابرة، (12) نجد ما يلي:

س: هل كنت تتوقعين استشهاد الشيخ عزام في أي لحظة، خاصة بعد فشل محاولة الاغتيال الأولى؟!

ج: إنني كنت أتوقع استشهاده منذ بداية الجهاد، وقبل الاغتيال الفاشل بالطبع، نظراً لدوره في الجهاد، ولمشاركته في ساحة الجهاد بالداخل،،،،، ومن ثم، فإن الاغتيال السابق لم يضف شيئاً، بل إنني طلبت من الله أن يرزقني الشهادة في أحد منهم فأكرمني الله بثلاثة! فسعدت سعادة كبيرة، إنني لا أبالغ إن قلت لك إن نبأ استشهاد زوجي وأولادي كان كالكأس الباردة على قلبي.

س: هل هناك من كلمة توجهينها عبر المجلة؟! ولمن؟!.

ج: أقول لمن يريد أن يواسيني في مصابي أن يواسيني بالدعاء لأنني لا أتقبل في الشهداء عزاء، فأطلب من كل مسلم ومسلمة أن يدعوا هذا الدعاء لي ولزوجة محمد ابني وبناتي الثلاث: " اللهم برد على قلوبهن كما بردت على إبراهيم عليه السلام، واربط على قلوبهن كما ربطت على قلب أم موسى عليهما السلام".

وهناك نماذج أخرى لا أمل من سرد بعضها للعبرة والموعظة الحسنة: أما أسماء ذات النطاقين رضي الله عنها، فما حمد الناس فضيلة للمرأة بنتاً وزوجة ووالدة، إلا كانت فيها على أجملها وأسماها وأحقها بالتمجيد والإكبار، أسلمت مع أبيها رضي الله عنه، وكانت تخاطر بنفسها لإخفاء هجرته مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، وتزويدهما بالطعام والميرة في تلك الهجرة، ولم تجد ما تشد به طعامها فشقت نطاقها وشدته به، فسميت لذلك ذات النطاقين.

وتزوجت الزبير بن العوام رضي الله عنه، وليس له مال ولا مورد، فكانت تعلف فرسه وتدق النوى لناضحه (13) وتستقي له الماء، وتخرز له غربه (14) وتنقل النوى على رأسها في الأرض التي أقطعه إياها رسول الله صلى الله عليه وسلم مسيرة ميلين، وما زالت كذلك، حتى علم أبيها بمشقتها في خدمة زوجها اتفاقاً، فأعانها بخادمة، بعد أن قضت زمناً تخدم بيتها، وهي بنت أبي بكر وزوج الزبير وأم عبد الله من أعظم أبطال الإسلام رضي الله عنهم أجمعين.

وحوصر ابنها عبد الله في مكة، فخذله الناس حتى أهله وولده، وعرض عليه بنو أمية الأمان والولاية والمال، فذهب إليها يعرض عليها أمره وهو يقول:

" ... لم يبق معي إلا اليسير ومن لا دفع عنده أكثر من صبر ساعة من النهار، وقد أعطاني القوم ما أردت من الدنيا فما رأيك؟ "

فما ضعفت من الهول ضعف النساء، ولا ضعف الأمهات، وإن الأبطال الصناديد ليضعفون في مكانها، فلا يعدمون المعذرة الناهضة والشفاعة المقبولة، بل ملكت جأشها وملكته جأشه، وأقبلت عليه تقول:

" يا ولدي إن كنت على حق تدعو إليه فامض عليه، فقد قتل علية أصحابك، ولا تمكن من رقبتك غلمان بني أمية فيتلعبوا بك، وإن قلت إني كنت على حق فلما وهن أصحابي ضعفت نيتي، فليس هذا فعل الأحرار، ولا فعل من فيه خير، كم خلودك في الدنيا؟ القتل أحسن ما يقنع به يا ابن الزبير، والله لضربة بسيف في عز، أحب إلي من ضربة بسوط في ذل ".

والتفتت تدعو الله كأنما تناجي نفسها:

" اللهم ارحم ذاك النحيب والظمأ في هواجر المدينة ومكة، وبره بأمه، اللهم إني قد سلمت فيه لأمرك، ورضيت فيه بقضائك،

فأثبني في عبد الله ثواب الشاكرين".

مقالة أم تجاوزت المائة، واصطلحت عليها الملمات، وكف بصرها من الحزن، ويئست من نصرة ابنها ومن حياته في جهاده، فناهضت من السن والمرض والخوف والثكل في أحرج الساعات ما تنوء به عزائم الأفيال، وتنهد له أركان الجبال.

ثم غلب القوم ابنها المقدام، فصلبوه، ورفعوا جثته للتمثيل والتشهير، فآلمها أن يصاب في كرامة موته، كما آلمها من قبل، أن يصاب في كرامة حياته، وذهبت إلى الحجاج تسأله في ذلك سؤال الأعزاء، فقادها الدليل إليه حتى وقفت على مقربة منه تقول:

" أما آن لهذا الراكب أن ينزل؟

قال في غير رفق ولا حياء:

" المنافق؟"

فما همها وهو صاحب طلبتها أن يجيبها أو لا يجيبها، وإنما همها أن تدفع عن ولدها، وأن تجزي الشتائم بشتمة، وقالت مغضبة:

" والله ما كان منافقاً، والله ما كان منافقاً، وقد كان صواماً قواماً..."

فعاجلها مغيظاً من ردها عليه:

" إذهبي فإنك عجوز قد خرفت..."

قالت:

" لا والله ! ما خرفت، ولقد سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: يخرج من ثقيف كذاب ومبير، فأما الكذاب فرأيناه، وأما المبير فأنت هو.

وهذه هي الأم التي يشرف بها الأبناء والآباء، وتشرف بها سلالة آدم وحواء، هذه أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما". (15)

ثم هل نتحدث عن الخنساء؟! إن قصتها قبل الإسلام و بعده سارت بها الركبان: فقدت صخراً في الجاهلية فرثته بما تعلمون، ولما فقدت أربعة في القادسية لا جزعت ولا هم يحزنون.

أما والدة البطل الفلسطيني يحيى عياش الشهيد، فكانت كتلكم الأمهات الرائعات اللائي تفتخر بالانتساب إليهن ثم إن في زماننا بقية من الصالحات المجاهدات، وقد أحسن التعبير الأستاذ(خلود الحواري بفلسطين المسلمة العدد11 من السنة13 في جمادى الآخرة1416 ه على لسان هذه الأم الرؤوم، نقرأ من رسالتها المستعجلة إلى ابنها البطل يحيى عياش:

من الرسالة الأولى:

أيا بطلي المغامر، أناديك من قلبي، من حبي الذي ترعرع في رحمي، ليصنعك بطلاً برعاية الله... أيا بطلي المسافر في كل ذرة هواء، يسألونني عنك يا مهندس قلبي: أين أنت يا حشاشة صدري؟ يسألونني عن مكانك، عن زمانك، فأجيبهم ولهيب القيد يدمي معصمي يحيى يحيا في كل مكان... في كل زمان... يطاردكم يا شتات صهيون...

فلتسم يا ولدي يا ابن كل حرة... تستقبل بابتسامة النصر الأكيد.

من الرسالة الثانية:

يا قنبلة فلسطين التي تحرق كل من مس كرامتها وأهلها.

اعتقلوني.. لأني أمك التي أنجبتك... كبلوني حرقوني... أتسمع ما يفعل بأمك وبكل أمهات الأبطال؟! فلا تضعف لذلك... ولا تستكن. اجعل تأوهات أمك فتيل قنبلة أخرى تخرج بها أحد جنود الله لينسف بها كل عدو وكل متخاذل...

من الرسالة الثالثة:

أرأيت حرابهم المغروزة في صدر أبيك المثقل بالمآسي؟ أتراك سمعت صدى نداء أخوتك من وراء زنازين القمع... اجعله خناجر تطعن بها عيونهم التي احمرت من لون دمائنا التي سالت في صبرا وشاتيلا...

من الرسالة الأخيرة:

ولدي الحبيب أرسل إليك كلماتي هذه، وجبهتي ما تزال تسمو فوق حرابهم، كلما أشاروا إلي بأصابع أصابتها ارتجاجات حمى الخوف المتكاثف يوماً بعد يوم في قلوبهم الجبانة منك يا ولدي. ويقولون بأحرف تبعثرها قدسية قنابلك: هذه أم المهندس، فأنسى كل آلامي، وتصير دمائي النازفة دموع فرحي وافتخاري بك...

ومن المواقف البطولية كتلك، ما يبلغ به الشاعر عمر بهاء الدين الأميري رحمه الله وهو في القاهرة، إذ سعى مع الساعين لإنقاذ سوريا من براثن الحكم العسكري، لأن رئيس الانقلاب العسكري (الشيشكلي) حُدّث بحب الشاعر الأميري لأمه، وصدوره عن أمرها، وحرصه على برها وطاعتها، فأرسل الشيشكلي إليها لتعزم على ابنها بترك ما هو فيه، وكان من جوابها:

" إنني بعيدة عن مدارك الحياة، وقد ربيت ابني على الإخلاص، ووزن الأمور ويقظة القلب، فلا أرى أن أقترح عليه شيئاً في شؤون هو أعرف بها مني، ولكن حسبي أن أدعو له بالهداية والتوفيق إلى ما يرضي الله ، وينفع البلاد والعباد.."

ولما بلغ الشاعر الخبر، أفعمت نفسه سروراً وغبطة، وامتلأت اعتزازاً بموقف أمه العزيز الشهم الكريم، فأرسل إليها بتحية السلام والوفاء:

أمـــاه يـــا هـــبـــة القدر	يـــا كنز روحي المدخر
يـــا كل معنى من معاني	الــخـــير في نفسي وقر
يـــا عزة الإيمان تسري	فـــي البصيرة والبصر
يـــا نضرة الطبع الأبي	مـــن المذلة والوضر ( )
يـــا غضبة العزم الرحيم	عـــلـــى المظالم والغرر
يا هاتف العلياء يدعوني	تـــــقـــدم يـــا عـــمـــر
بـــتـــحـــيتي لك أستهل	وأرتـــجـــي عـــاماً أغر
الـــيـــوم قد ودعت عاماً	مر من عمري ومر(16)

ومبالغة في عرفانه لود أمه وحكمتها تجده مستحضراً حديث المصطفى صلى الله عليه وسلم: إلزم قدميها فإن الجنة عند قدميها أو كما قال عليه الصلاة والسلام.

هـــي الأم ركـــن قـــدس الله شأوه	وأرســـى به في الكون رحمته حقا
وشـــاد عـــلـــى أقدامه جنة الرضا	وكـــرمـــه في الخلق مذ برأ الخلق
وأمـــي لـــهـــا فـــي ذاتها وصفاتها	ســـجايا من الأمّات في نظري أنقى
كـــأني بها صيغت من البر والتقى	وأن لـــهـــا فـــي وجهها منهما ألقا
لـــقـــد أورثتني عن أبي شيم النهى	فـــلم أرتكب حوباً ولم أهتضم حقا
وقـــد غـــلـــغلت بي جميل طباعها	حـــنـــانـــا وإيثارا، ومن ذوقها ذوقا
وقـــد صحبتني في سبيلي إلى العلا	ومـــن خـــلـــقي ألا أساق لها سوقا
وقد وجهت طرفي إلى أرفع المنى	فـــأصبحت أبغي فوق ذروتها فوقا
جزى روحها الرحمن أكرم ما جزى	به البر والإيثار والخلق الأتقى(17)

وفي تسليم تام لقضاء الله عز وجل، يقول الأميري في شأنها بعد أن لبت البلاغة بعدما استعصت كما سلف:

ويـــســـعـــد نفسي لظى اليتم أن لي	رضا منك، أحيا العمر فيه فلا أشقى
وأنـــي عـــلـــيـــم أن الموت، حكمه	مـــن الله ، صـــدع لا نطيق له رتقا
وأن يـــقـــيـــنـــي أنـــنـــا كـــلنا له	فلله ما استوفى، ولله ما استبقى(18)

مستحضراً تصريحاً في عجز البيت الأخير حديث الرسول صلى الله عليه وسلم ما يقال عند الموت: " لله ما أعطى وله ما أخذ ..." بعد التلميح إلى قوله عز وجل: [كل نفس ذائقة الموت...] وغيرها مما تدل عليه كلمة الصدع والرتق وليس سياقهما هنا.

قلت لبت البلاغة بعد الإقرار بعجزه رحمه الله عن التعبير عما يمور في نفسه من لواعج الأسى والكرب، فإن الرشاقة في الوزن، والرقة في التعبير، ظاهرة بارزة، ومن شواهدها قصيدته:

بلاغة لا تلبي

أماه، من قلبي انتزعت وأنت أنت صميم قلبي.. إلخ إلخ.

فهي من مجزوء الكامل المرفل بكل ما فيه من رشاقة في الإيقاع الموسيقي، إلى ما تميزت به هذه القصيدة أيضاً من نصاعة في التعبير، وقرب في المأخذ، وعفوية في النظم.(19)

وليس الأمر غريباً، فقد فقدت شخصياً ولدين عوضني الله الحنان المنان عنهما بولدين له الحمد والمنة، غير أنني لم أسطع إلى رثائهما سبيلاً، ومن نفس المشكاة كان شوقي من أوفى الأوفياء لحافظ إبراهيم رحمة الله عليهما (20) وحين مات هذا الأخير لم يجرؤ الناس على إخبار شوقي بوفاته، ولما بلغه النبأ، ظل أياماً لا يتكلم حزناً على صاحبه، وحين طال سكوته، سأله الناس في ذلك، وأشاروا إلى سكوته عن رثائه فأجابهم:

" وهل العواطف تساق بالعصا؟! "

وحين جاء دور الرثاء رثى صديقه بقصيدة عامرة كان مطلعها من أحسن أبيات الرثاء في الشعر العربي، فقد افتتح قوله بهذا البيت الخالد:

قد كنت أوثر أن تقول رثائي يا منصف الموتى من الأحياء.

وأكمل رثاءه بهذه الأبيات التي كانت كلها حزناً على صاحبه وأسفاً لفقده فقال:

ووددت لو أني فداك من الردى والـكاشحون المرجفون فدائي

مـن كـل هـدام ويبني مجده بـكـرائم الأنقاض والأشلاء

مـا حطموك وإنما بك حطموا من ذا يحطم رفرف الجوزاء؟

كانت هذه القصيدة آخر حديث بينه وبين رفيقه وشعره، فقد مات شوقي بعد أيام رحمة الله عليهما.

وقبل ختام هذا الفصل لابد من تسجيل الاستفادة البارزة لأحمد مطر من قصيدة شوقي حين كتب قصيدته: " ما أصعب الكلام " لما رثى ناجي العلي الرسام الفلسطيني المعروف، كما أحب أن أشاكس أحمد الجندي في أن أحمد شوقي أكبر من أن يحمل غلاً أو حسداً لحافظ إبراهيم إنما لم تلب البلاغة إلا بعد حين بتعبير الأميري، وإلا لما كتب حرفاً واحداً، ثم لماذا كان يلازمه وعلم الناس صداقتهما حتى طالبوا بحقه في الرثاء؟!

❁ ❁ ❁

هوامش:

(1) عمر بهاء الدين الأميري شاعر الأبوة الحانية والبنوة البارة والفن الأصيل. بقلم الدكتور محمد علي الهاشمي، دار البشائر الإسلامية بيروت / لبنان ط:1 1406 / 1986 (الأبوة الحانية) بتصرف.

(2) ديوان (عمر أبو ريشة) ص: من 93 إلى 95.

(3) نفسه (ص ص: 22 23). (أنظر الهامش (1)).

(4) نفسه بتصرف.

(5) نفس المعطيات (ص ص: 24 25).

(6) نفسه (ص من 33 إلى 36).

(7) نفسه (ص ص 49 50).

(*) ضرب من الذباب يطير بالليل في ذنبه وميض.

(**) الذي ثقل عليه المرض.

(8) ص:45.

(9) أن يطلب من صديقه الوزير أن يتدخل له في إرجاعه إلى عمله

(10) ص:61.

(*) تشعباتها.

(**) دعاء لها بالفوز والنعيم في الآخرة مأخوذ من قوله تعالى:[فأما من ثقلت موازينه فهو في عيشة راضية. وأما من خفت موازينه فأمه هاوية) الزلزلة.

(11) نفس المعطيات ص: 93.

(12) أجرته معها المجلة العربية جمادى الآخرة1410 ص:19 بتصرف.

(13) البعير الذي يستقى عليه الماء.

(14) الدلو من الجلد.

(15) عبقرية الصديق ص:72.

( ) كل ما ليس بنظيف.

(16) نفس معطيات الهامشة (11) (ص من 95 إلى 97).
(=) جمع كالأمهات.
(17) نفس معطيات (16) (ص ص: 99 100) بتصرف يسير.
(18) ص: 104.
(19) نفسه بتصرف (ص ص114 115) . وهنا يعن لي مجرد سؤال للناقد: هل يتعارض موضوع الموت مع الرشاقة والموسيقى؟!!.
(20) بين شاعرين: حافظ إبراهيم وأحمد شوقي التحاسد بين الشعراء لابد وأن ينتج شعراً، بقلم أحمد الجندي شاعر وكاتب سوري عن القدس، ملحق بيان اليوم الثقافي المغربي ص:24 من العدد 62.